مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد: 07/ العـدد: 01/ جوان (2023)، ص.440/432

تفكيك ميثولوجيا المحرقة اليهودية وتصحيح المغالطات التاريخية "في روايتي مصابيح أورشليم وحدث في برلين"

Dismantling Holocaust mythology and correcting historical misconception "In novel The Lamps of Jerusalem . happened in Berlin"

عائشة بوحناش
aichabouhannache@gmail.com
جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2023/02/07 تاريخ القبول: 2023/04/14 تاريخ النشر: 2023/06/02

ملخص:
تعد روايتا مصابيح أورشليم لعلي بدر ورواية حدث في برلين لهشام الخشن من بين السرديات العربية الذكية التي كُتبت كرد على الخطابات الأدبية الإسرائيلية وتفنيد مزاعمها هذه الأخيرة التي اتخذت من أسطورة المحرقة اليهودية منفذا للتسلل إلى التاريخ والعبث به عبر سرد مغالطات تاريخية تأسست على أكاذيب المخيّلة الصهيونية التي صنعت من تاريخ المحرقة واجهة إعلامية لكسب الرأي العام وشحن التعاطف في محاولة منها للانتقال من دور المغتصب المحتل والمجرم إلى دور الضحية. فالرواية اليوم تعد وسيلة من وسائل توجيه الرأي وتحقيق الوعي الجماهيري، وعليه ركزت قراءتنا النقدية لهذين الروايتين على مسألة تفكيك أسطورة المحرقة التي فبركها التاريخ الصهيوني من جهة وتصحيح الصور التي أقصت التاريخ الفلسطيني وأحقيته في امتلاك أرضه وقدسه.
كلمات مفتاحية: الهولوكوست، الذاكرة والتاريخ، الصهيونية، الرد بالكتابة.

Abstract:
*Ali Badr' **The Lamps of Jerusalem** . Hisham Al Khashan **happened in Berlin** Novels are among the Arab narratives Written in response to Israeli literary rhetoric and refuted the latter's claims from the myth of the Holocaust is an outlet for infiltrating and tampering with history through a narrative Historical fallacies founded on the lies of the Zionist fantasy made from the history of the Holocaust Media interface to win public opinion and charge sympathy in an attempt to move from the role of the occupying rapist and the criminal to the victim's role. Today's narrative is a means of guiding opinion. And to achieve public awareness, so we focused our critical reading of these two novels. On the one hand, the question of dismantling the myth of the Holocaust blessed by Zionist history and correcting images that eliminated Palestinian history and its entitlement to own and sanctify its land.*
***Keywords:** Holocaust, memory and history, Zionism, reply by writing..*

تقديم:

تستحضرني مقولة تختزن بين حروفها رؤية مهمة جدا مرت عليّ في إحدى الكتب التي قرأتها تقول: **"إنما الأمم سرديات كبرى"** فقد أضحت جميع دول العالم اليوم تمتلك خزانات أرشيفية لتاريخ الإبادات الجماعية التي حدثت على مرّ التاريخ فمنها ما هو موضوع في متن التاريخ ومنها ما بقي على هامشه لم يُلتفت إليه. إذ أن الرواية اليوم أصبحت تهتم بتسريد الذاكرة وكشف المغالطات التاريخية وفتح ملفات حبيسة الرفوف الأرشيفية والمكتبات

والمؤسسات والمتاحف بهدف تفكيك الخطابات التي تشكلت حول الذاكرة الجمعية لجماعات معينة لبعض القوميات والأعراق والوعي الجمعي في مختلف بلدان العالم باعتبار أن الروائي المعاصر يحاول من خلال كتاباته التعامل مع بعض القضايا والمفهومات السائدة برؤى ومقاربات جديدة تساير ما تناقشه النظريات النقدية المعاصرة كنظرية ما بعد الاستعمار والدراسات الثقافية، وتعد قضية المحرقة (الهولوكوست واحدة من أبرز قضايا الإبادة الجماعية التي حدثت في التاريخ والتي اهتم بها الروائيون والكُتاب لا لكونها قضية أهم من الإبادات الجماعية التي حدثت ضد أعراق وأجناس أخرى بل لارتباط هذه الذاكرة اليوم بالقضية الفلسطينية، أو الشعب الفلسطيني الذي يدفع ضريبة هذه الذاكرة التي لم يكن له يد فيها، ومن ناحية أخرى كونها رواية تاريخية أخذت صفة العالمية.

صحيح أن العالم اليوم يشهد مفاهيم ونظريات جديدة تحاول التأسيس لما يسمى قبول الآخر في ظل التعددية الثقافية، مرتكزة على فلسفة التسامح وإمكانية تحقيق العيش المشترك بين قوميات وشعوب العالم من خلال خلق فضاء ثالث حسب المفهوم الذي يسوقه "هومي بابا" **Homi Bhabah** ، بعدما بات العالم يعيش هجنة من العرقيات والثقافات التي تضطهد مقولة الثقافة النقية والعرق النقي، إذ «تدرك جميع مجتمعات ما بعد الكولونيالية هويتها من حيث الاختلاف وليس من حيث الجوهر»[1]- ولكن هي المفاهيم التي لا يمكنها أن تنطبق على شعب مازال يعيش وطأة احتلال استيطاني على أراضيه، بل هي المفاهيم التي عجز المجتمع الأوروبي التحلي بها وظلت مجرد شعارات خطابية لا وجود لها في مشاهد الحياة اليومية والمواقف السياسية كالمجتمع الديموقراطي، فنظريا نحن نتحدث اليوم عن مفهومات ورؤى جديدة لا يمكنها أن تنطوي على كافة شعوب العالم أو القضايا التي لا تزال عالقة معقدة إلى يومنا هذا، فعندما نتحدث عن القضية الفلسطينية فنحن لا نتحدث عن صراع قوميتين بل نتحدث عن مغتصب ومحتل للأراضي الفلسطينية بالعنف، نتحدث عن النكبة الفلسطينية، عن مجازر صبرا وشتيلا، عن مخيمات اللاجئين عن استمرار الجرائم والنفي إلى يومنا هذا، نتحدث عن انتقام اليهود لتاريخ ذاكرة وهمية، لتبرير تواجده على أرض غيره، نتحدث عن كتابة تاريخ وهمي يخترع أرض اسمها إسرائيل عاصمتها تل أبيب، كل هذه الأحاديث تجعلنا نتساءل ما موقع القضية الفلسطينية من فلسفة هذه النظريات المعاصرة، التي تصطدم لا محالة بالفلسطيني الذي لن يسامح، وبالشعب الذي يرفض تعايشا مع من استوطن داره معتديا.

فإن كانت الرواية العربية تفتح ملف ذاكرة المحرقة النازية لليهود، فهي لا تتجاوب معها بذاتية عربية متعصبة تنتصر لما هو عربي وترفض إدانة من قام بالمحرقة، وإنما لما شكّلته هذه المحرقة من خطابات سياسية بالدرجة الأولى ومرويات تتناقلها الأجيال اليهودية الصهيونية اليوم جيلا بعد جيل لتسليط الضوء على كون اليهودي ضحية العالم لتضليل الرأي العام والإعلامي وكسب صوته في العالم وتظليل ممارساته الوحشية على الأراضي المحتلة، فالروائي المعاصر يتعامل بموضوعية اتجاه القضايا الإنسانية الأخلاقية وخاصة قضايا الإبادة التي طالت الكثير من شعوب العالم، والتي تتوجب تعاطفا إنسانيا أخلاقيا قبل كل شيء، على أن لا يكون هذا التعاطف وسيلة تبريرية لردة فعل انتقامية، وهو ما يريده اليهودي الإسرائيلي اليوم.

تعد رواية حدث في برلين واحدة من أبرز الروايات العربية التي فتحت ملف تاريخ المحرقة النازية لليهود على لسان ذاكرة ناجية من المحرقة "راشيل مائير"، شخصية داخل الرواية مثقفة يهودية تُدرّس تاريخ اليهود لليهوديين بجامعة برلين، تسترجع ما كانت شاهدة عليه باعتبارها واحدة من الضحايا الذين تم ترحيلهم إلى معسكرات الموت، والتعرض لشتى أنواع الاستعباد والاضطهاد النفسي والجسدي رفقة عائلتها اليهودية، منذ ليلة الكريستال، بالإضافة إلى فتح ملف محاكمة أحد الجنود النازيين "أيخمان" المحاكمة التاريخية بتهمة أُرتكبت جماعية والتي أخذت أبعادا سياسية بين إدانة وتعاطف، حاول الكاتب من خلالها مساءلة هذه الذاكرة بتوظيفه لأحداث شائكة تجرّعتها الإنسانية على يد زعمائها، سردية أراد الكاتب عبرها استكشاف وجهات نظر تاريخية مختلفة، حول هذه الذاكرة، وذلك عن طريق استدعاء ضحية كتب لها القدر النجاة كشاهدة على الجريمة ومن جهة ثانية استدعاء صوت مشارك في الجريمة يتحمل مسؤولية ما ارتكبه الجميع وبين صائد للنازيين من أجل المحاكمة والمطالبة بتعويضات والمتاجرة بالقضية، وبين هارب من العدالة بتهم لم يرتكبها، وبين شخصيات كانوا ضحايا اضطهاد الإنسانية، هذا من جهة ومن زاوية أخرى شكلت كتابات علي بدر السردية منبرا ثقافيا تلخصت فيه الكثير من المواقف السياسية والأدبية

والثقافية، حول القضية الفلسطينية والتطبيع السياسي الذي يسعى لتبرير تاريخ كُتب بحبر الصهيوني، ففي رواية مصابيح أورشليم ورفقة "إدوارد سعيد" **Edward Saïd** الشخصية السردية وشخصيتين من شخصيات روايات إسرائيلية "لعموز عوز" "يائيل وايستر" من أجل الرد عليها كتابة وباستحضار وثائق تاريخية، باعتبارها رواية تحمل رؤية إقصائية للفلسطيني، ورؤية إيديولوجية متناقضة حول إقامة دولة واحدة لقوميتين مختلفتين في الآن ذاته لا وجود لحق تقرير المصير وحق العودة للفلسطينيين، ليكون السلام الذي يقترحه أمثال "عموز عوز"[2]* في كتاباته والمستمدة من اتفاقيات أوسلو هو سلام مزيف، وهو السلام الذي يرفضه إدوارد سعيد حيث يرى أنه لابد من «إنهاء الاحتلال وإزالة المستوطنات وإعادة القدس الشرقية وحق تقرير مصير حقيقي ومساواة حقيقية للفلسطينيين، وقلت إنني لا أعترض على السلام الحقيقي والتعايش الحقيقي الذي أدعو له منذ عشرين سنة، وإن ما أعارضه وتعارضه غالبية الفلسطينيين هو السلام المزيف واللامساواة المستمرة بيننا وبين الإسرائيليين، الذين يسمح لهم بالسيادة وسلامة الأراضي وتقرير المصير فيما نُحرَم نحن ذلك»[3].

يجوب بنا علي بدر ضمن عالم سردي إلى أعماق التاريخ ويستحضر المؤامرة التي جعلت من القدس وفلسطين جغرافية من جغرافيات الدولة التي تم اختراعها اسمها إسرائيل وعن طريق المواقف التي تميز هذه الشخصيات سواء المقاومة أو الرد بالكتابة وضمن فضاء تعددي للأصوات التي تم استحضارها نلمح الخط الموازي الذي يريد به الكاتب وضع خريطة للقدس تُبنى بالدرجة الأولى على هدم الأسطورة الصهيونية التي صنعت تاريخا واقتنعت به، ولهذا فاستحضار الشخصية اليهودية هنا لأشهر كاتب اسرائيلي غرضه التفاوض بلغة "سبيفاك" **Spivak**هو تبيين لمدى بشاعة الأذى التاريخي الذي ألحقه الاستعمار والاستيطان الصهيوني بالأراضي الفلسطينية، حاول الكاتب فضح بلغة مؤسسي مدرسة فرانكفورت تلك الصناعة الثقافية التي خوّلت لليهودي كتابة تاريخ جديد على أنقاض الشعب الفلسطيني، استغلالا لرواية الهولوكوست التي استحوذت عليها إسرائيل كورقة رابحة في أجنداتها السياسية.

وعليه تحاول هذه الورقة البحثية تقديم قراءة في أحداث الروايتين من خلال استغلال لبعض مفاهيم ومقولات نظرية ما بعد الاستعمار واستراتيجيات تفكيك الخطابات والأنساق ومُساءلة التاريخ داخل السياق الأدبي في علاقته بما هو خارج النص من منظور الدراسات الثقافية، بهدف تقديم إجابات لبعض التساؤلات التي انطلقنا منها: كيف تحول الهولوكوست من رواية تاريخية إلى رواية كاتبة لتاريخ وهمي، لدولة وهمية اسمها إسرائيل؟ كيف حاول الروائي العربي تصحيح المغالطات التاريخية عن طريق مساءلة شخصيات سردية تاريخية سواء كانت شاهدة أو جزءا من الأحداث؟ لماذا يستحوذ اليهودي على دور الضحية في العالم؟ كيف فكك الروائي العربي ميثولوجيا المحرقة سرديا وربطها بالتاريخ الرسمي؟ هل تستطيع الكتابة السردية العربية خلق وعي بحقيقة المغالطات التاريخية؟

01- محاكمة آيخمان: الصناعة الإعلامية للهولوكوست

إن الرواية الأكثر تداولا حول تاريخ اليهود هي قضية المحرقة التي تعرّض لها هذا الأخير حيث أصبحت رواية تسرد فصولها بين جدران مؤسسات ومتاحف تذكارية قومية وعالمية ترمي إلى تحقيق معرفة بتاريخ اليهود قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها في تتابع زمني هدفه تصنيع العاطفة وشحنها داخل هذه المتاحف التي تحوي وثائق وتسجيلات وشهادات حية وصُور صادمة لبعض ضحايا النازية التي يعاد تمثيلها وأنسنتها في صور ذات طابع فرداني للضحايا مثل متحف "ياد فاشيم" الإسرائيلي وغيرها من المتاحف التي تحتضن ذاكرة المحرقة في بقية الدول[4]، وعليه باتت رواية المحرقة إعلاميا وسياسيا الآن تمثل بروباغندا من قبل يهود إسرائيل في محاولة منهم التغطية على جرائمهم البشعة ضد الإنسانية في فلسطين، والممارسات المشابهة لما يدينون به ألمانيا النازية وصناعة من هذه الجغرافية التي احتلوها محرقة حقيقية من خلال لعب دور الضحية داخل العالم أو في عيون الإنسانية، فهو اليهودي الذي تعرض للإبادة الجماعية ولابد على العالم وعلى منابر حقوق الإنسان الدفاع عنه كونَه ضحية لا جلاد، فاليهودي يتحدث إلى العالم بطريقة تراجيدية يحاول أن يقدم تاريخه عن طريق مأساوية المحرقة النازية، التي يريدها أن تستمر في الحاضر والمستقبل، تتناقلها الأجيال وهو ما جاء على لسان الشخصية اليهودية "شيمون قايتسمان" أحد مطاردي النازيين لأجل تحقيق العدالة لليهود في اعتقاد مزاعمه «لم أندم يوما على عمر أمضيته في هذه القضية...الوحشية التي

عشناها على أيديهم أوجبت ألا نتركهم يفلتون بما فعلوا...المحزن أن صوتنا خفت من جديد والناس نسوا معاناتنا...لا يمكن أن نسقط من ذاكرة الأجيال...لابد أن نستمر في تذكيرهم بما اقترف أجدادهم وآباؤهم»[5]، غير أن هذه الشخصية كما تظهرها الرواية هدفها هو المتاجرة بقضية المحرقة واستغلالها من أجل كسب الأموال، والتي تنتهي بها المطاف بمقايضة إحدى الناجيات من المحرقة "مائير راشيل"، من أجل تقديم شهادة تنافي الحقيقة التي كانت شاهدة عليها وعلى الكمان الذي قدم هدية من اليهودي "مائير" للجنرال "شميدت" عربون شكر له، في محاولة منه طمس الحقائق التي تقر بوجود نازيين ألمان قدموا الحماية لليهود مثلما فعل "الجنرال شميدت" الذي أنقذ ابنة جاره "مائير" من النازيين ليلة الكريستال بعد الهجوم على محلات وممتلكات اليهود وتحطيمها حيث تم كسر محل الروهونات الذي كان يملكه "مائير"، فغرض صائد النازية ليس إنصافا للضحايا إذ تسقط حقوق الضحايا التي كان يتغنى بها في شعاراته بمجرد حضور صفقة فيها مال قد يكون من نصيبه، وهو ما يبرر رغبته في استمرارية بعث الذاكرة إلى الواجهة عبر مطاردات عشوائية. وهذه الشخصية تمثل صورة للوجه الآخر لمن تبنوا دور ضحايا أفران "هتلر" أو تبني القضية بزعم الدفاع عنها واستعمالها كدعاية لتمرير المخطط الصهيوني.

وطبيعي أن نجد السرديات التي تتناول قضية فلسطين في صراعهم ضد المحتل اليهودي سواء كانت لكتاب يهود أو كسرد مضاد تستحضر موضوعة الهولوكوست باعتباره التاريخ الوحيد الذي يحوزه اليهودي قبل أن يستعمر جغرافية لا ينتمي إليها في محاولة منه اختراع تاريخ جديد في فضاء جغرافي لا يفهمه، وليس أمامه سوى كتابة روايات مشوهة للرأي العام قائمة على مغالطات تاريخية والإعلان عن نفسه عبر أسطورة المحرقة وعددها المشكك فيه بالدلائل من قبل الكثير من الباحثين أمثال "روجيه جارودي" في كتابه "محاكمة الصهيونية الإسرائيلية"، «لقد استغلت العنصرية الصهيونية آلام اليهود تحت الحكم الهتلري لتنفيذ مؤامرة رهيبة ضد الأمة العربية بانتزاع جزء من ارضها لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين العربية في جزء ما تعرضت له كانت تدفع كفارة الضمير الألماني»[6].

تتحول فلسطين من زاوية مقاربتنا لها مع أحداث الرواية إلى النازي "أيخمان" الذي حُكم عليه بالإعدام متحملا لمسؤولية جريمة المحرقة، الذي كان فيها مجرد موظف مسؤول داخل نظام مفروض من منظور "حنة آرنت"[7]، وهي المحاكمة التي استغلتها إسرائيل لإيصال صوتها للعالم كما ورد على لسان الألمانية "ليليان شميدت" سكرتيرة أيخمان في رواية "حدث في برلين"- «على مدار شهرين أصبح العالم يتابع عن كثب تلك المحاكمة، وما تكشفه من مزاعم الجرائم الوحشية التي قام بها بشر ضد بشر مثلهم. في ضوء عدم تحصلهم على متهمين آخرين، ألصق الإسرائيليون كل تهم النازية بمن كان تحت أيديهم، في وسط هذا الفوران الإعلامي، عادت النازية وجرائمها لتؤرق من جديد ضمائر الألمان»[8]، تمكنت إسرائيل من خلال محاكمة فرد واحد من النازية إيصال للعالم خمسة عشرة تهمة وجريمة بشعة على الأقل خلقت منها فرصة لكسب تعاطف إنساني واسع، بالرغم من يقيننا بأن فردا واحدا لا يمكنه أن يقوم بكل تلك الجرائم التي نُسبت له لكنها كانت تريد تعريف العالم بذاكرة صهيونية سياسيا يهودية عرقيا اسمها "الهولوكوست" في أبشع صورها وإيمان الشعوب بكل مزاعمه. فنجاح إعدام أيخمان أعطى حافزا لصائدي النازيين أمثال "شيمون فايتسمان" لملاحقة المزيد من النازيين ومحاكمتهم كي تبقى قضية اليهود في الواجهة الإعلامية فاعلة ونلمس هذا الاعتراف على لسان "ليليان شميدت" «الضغط زاد بشدة بعد محاكمة وإعدام أيخمان، إذ وجب عليه إنتهاز الزخم الذي تسببت فيه المحاكمة وعودة قضية الهولوكوست إلى بؤرة الضوء. أصبح الهدف هو اصطياد وتقديم أكبر عدد ممكن من النازيين ومعاونيهم إلى العدالة»[9]، حيث أرادت إسرائيل استثمار ما جنته محاكمة أيخمان بكل الأساليب، سواء كان لهؤلاء الألمان تعاطفا أيام المحرقة مع اليهود أو مشاركين في الجريمة ضدهم، لا يهم فالمهم أن إسرائيل أصبحت في دائرة ضوء العالم. بالرغم من أن فلسطين لم تكن مشاركة في جريمة المحرقة لكنها تدفع ثمن هذه الأسطورة لتظليل الرأي العام وتحقيق الأهداف المسطّرة وهي أخذ أرض لها شعب لها تاريخ لها خصوصياتها الثقافية، "فأيخمان" وسكرتيرته "ليليان شميدت" وفلسطين، كلاهما لقيا مصيرا واحدا في الأخير الفارق الوحيد أن أيخمان جزء من الجريمة والأخرى شاهدة على الجريمة، بينما فلسطين أرض تم قرصنتها وإقحامها في أحداث تاريخية مغلوطة.

أما رواية مصابيح أورشليم فيتطرق علي بدر وعبر شخصية يهودية من شخصيات رواية الكاتب اليهودي "عاموز عوز" إلى موضوع المحرقة التي صنعت عقدة انتقام وضغينة في ذهن اليهودي من غير اليهود ويتجسد ذلك من خلال قول يائيل «لا تسألوا من هو المسؤول عن موت أكثر أحبابكم في الهولوكوست..... كل شخص ليس منكم فهو من أعدائكم»[10]، فاليهودي المهاجر إلى فلسطين يبرر نفسه أنه الناجي من هذه المحرقة ولابد له من الدفاع وخوض الحرب اتجاه الشعب الساكن المحلي حفاظا على هذا النجاة لأن دلالة الحياة في منطق اليهودي على لسان شخصية يائيل «إما محرقة، أو الدفاع والحرب كي ننجو من المحرقة»[11]. ليختار الحرب وارتكاب المجازر أسلوبا له في الحياة.

إسرائيل هذه المدينة الوحيدة التي يرى أنها قد حققت له النجاة للأبد من هذه المحرقة، المدينة التي تُحمل عليها أقدام الهاربين من المحرقة، فاليهودي هاجر فارا وأخذ في ذهنيته المحرقة إلى فلسطين كي يدفع هذا الفلسطيني في الأخير ثمن ما تعرض له، هو لا يبحث عن جغرافية كي يعيش وينجو فيها فقط، بل يبحث عن جغرافية ليحولها إلى محرقة دون أن يكون هو الضحية، ولكن اليهودي الذي يبحث عن السلام الحقيقي له اليهودي الذي هو خارج المخطط الصهيوني يرى أنه لم يتخلص من المحرقة فإيستر اليهودية ترى أن الحرب ما هي إلا محرقة في الأخير، فاليهودي المسالم الذي يبحث عن السلام يجد نفسه مجبرا على دفع ضريبة النجاة الوهمي من المحرقة على أرض إسرائيل، والضريبة هي الانخراط في المخطط الصهيوني وشن الحرب على الساكن المحلي حفاظا على وهمية نجاته، تقول إيستر «ثم ماذا بعد ..... ألسنا في إسرائيل .....ألم نتخلص من المحرقة....لكننا نتظاهر أننا لا نعلم»[12]، فاليهود الآن على أرض الميعاد التي يجب أن يحقق عليها مصالحه وأجندته السياسية، ولن تكون المحرقة إلا وسيلة للانخراط الإجباري لجميع اليهود والمشاركة في تحقيق هذه الأجندة، لتصبح المحرقة ستارا على هذه المصالح والأهداف المتمثلة في تهجير وإبادة الساكنين الأصليين لهذه الجغرافية، وتحقيق النصر الوهمي له، فذاكرة اليهودي الصهيوني هي محرقة ضده، وحاضرُه هي محرقة صنعها بنفسه ومستقبلُه هو بناء دولة إرهابية تحمي المشاركين في جريمة المحرقة وليس الناجون من هذه المحرقة، وكما تقول إيستر «كنا نخاف أن يشن العرب علينا الحرب...واليوم خائفون لأننا نحن الذين نشنها .... نشنها... ونعود ونشنها....ونخاف منهم.... متى ينتهي الخوف.... يا يهود إسرائيل»[13]، فاليهود على أرض فلسطين المحتلة في وضعية هجوم في واقع الأمر وليسوا في وضعية اليهودي الذي يحاول الحفاظ على نجاته من المحرقة والدفاع عن نفسه كما يحاول المخطط الصهيوني اليهودي إقناع العالم واستعطاف الرأي العام، بل ويتحول الفلسطيني إلى المدافع عن أرضه وعرضه أمام هذا الاجتياح الهمجي الذي يمارسه النظام الإسرائيلي من قتل وتهجير واغتصاب وانتهاك وحرق، وهو نظام تم تأسيسه على أنقاض ما تبقى من نكبات الفلسطينيين المتتالية منذ 1948، وهنا يتساءل علي بدر على لسان السارد «هل هذه هي إسرائيل التي حلُم بها أدورنو... هل هذه هي إسرائيل التي تشبه ألمانيا...وهي تحرق وتخرب؟»[14].

02- ضحايا جرائم ضد الإنسانية أم ضد العرقية اليهودية؟

يمنح هشام الخشن في روايته "حدث في برلين" مساحة للأصوات المقهورة التي عايشت كل أنواع الاضطهاد جراء الحروب والجرائم التي ارتكبت ضد الإنسانية من إبادات جماعية وحروب أهلية وغيرها أحقية الكلام وسرد ذاكرتهم كجزء من أحداث تاريخ الأمم، فهو ينزل بنا من متن التاريخ الرسمي إلى أسفله، إذ أن الواجب الإنساني يتطلب التعاطف مع كل ضحايا العالم بغض النظر عن اللون والعرقية والدين، دون الانتصار لتاريخ جماعة على حساب تاريخ جماعة أخرى، أو انتماء على حساب انتماء آخر، فخلف المحرقة، وخلف حرب ألمانيا هناك أيضا ضحايا من غير اليهود لقو نفس المصير، لكنهم لم يلقوا نفس التعاطف والتعويضات وربما لا يعرف قصتهم إلا القلة القليلة إذ بقي صوتهم خافتا على عكس ذاكرة الهولوكوست التي استحوذ عليها اليهود، ففي الأخير نحن نذرك أن الحرب لا تستثني أحدا ومن يدفع ثمنها باهظا هم الشعوب المستضعفة من قبل زعمائها، هم الشعوب الذين وجدوا أنفسهم مرغمين لا مختارين في خوض قرارات وجنون قاداتهم، فالخاسر من الحروب هي ضمائر الإنسانية هي ذاكرة الضحايا الناجون التي ستبقى شاهدة على ما اقترفه الإنسان ضد إنسان مثله، إذ أن صوت ضحايا المحرقة من اليهود كان حاضرا هو الآخر لإعلاء صوته داخل هذه المساحة، ليجسده عبر شخصية "راشيل مائير" التي لم تستطيع

صور العذاب وما عايشته أن تفارق ذاكرتها المعطوبة جراء ما كانت جزءا منه، «انسحبت ذكرى تلك الليلة وتوارت خلف جروح معسكر الموت الذي فارقها فيه كل من تحب. أقشعرت وهي تتخيل أباها وأمها يصارعان الموت في غرف الغاز، يحاولان تلمس النفس قبل أن تفارقهما الحياة. تذكرت أيام الشقاء في أوشفيتز، وهي في انتظار يوم ينفذ حكم موت قرر جلادوها أنها تستحقه بسبب عرقها»[15]. "راشيل مائير" واحدة من الضحايا الذين عاشوا في صمت مع أنين جراحاتهم، وقسوة المشاهد التي بقيت عالقة في حاضر أيامها، بالرغم من الألم الذي ظل يلازمها، والمشاهد التي تلاحقها في شوارع برلين التي احتضنت طفولتها وشبابها قبل أن تقرر حكومة هتلر العصف بها مع قومها خارج أسوار ألمانيا من وطن لم تعرف غيره إلى معسكرات الموت والإعدام، فصاروا هم المطاردون في وطنهم المختبئون في الجحور خوفا من الترحيل الذي قُرر ضدهم «لم يدروا إلى أي مكان يذهبون ولم يكن بهم قدرة على التفكير.(...) منذ تلك اللحظة لم تفارقها يوما نظرة أبيها وهم يقودون طابور الرجال في صرامة أمامهم. نظرته التي لم تدرك حين رمقها بها أنها الأخيرة التي سيتبادلونها. تذكرت يد أمها في ذلك اليوم وهي تنفك من يدها وهم يسحبونها هي الأخرى بلا عودة»[16].

ففي مقابل الصوت اليهودي ضحية النازية الألمان، نجد صوت الألماني نفسه ضحية هذه الحرب، تجسد في شخصية "جريتا" كانت بطلة رياضية لألمانيا الشرقية تحصد لها الألقاب والبطولات قبل أن يلفظها هذا الوطن ويتخلى عن جسدها الذي أضحى معطلا بسبب الحادث الذي جعلها معاقة لا ينفع في تحقيق أهدافهم، وكأن الكاتب تعمد استدعاء صوتين متعارضين لكنهما في آخر المطاف لقيا مصيرا مشابها، إذ تعيش هذه الشخصية مع ذكريات ألمها في فقدان أبيها وأمها جراء الحرب، وألم الجريمة المرتكبة في حق جسدها من جرائم ما أرتكب ضد البشرية، «تستغربين خشونة صوتي؟ (...) إنه من أثر التيسترون الحبة الزرقاء...ظللت أبتلعها يوميا منذ بلغت الخامسة عشر على أنها فيتامينات.. ولكنهم لم يقولوا لي أنهم يحولونني دون موافقة مني لذكر...ذكر مشعر صوته أجش، وبجهاز تناسلي نسوي».[17] يحاول هشام الخشن عبر سرديته هذه إعلاء أصوات أسكتتها الأنظمة الديكتاتورية بأساليبها المتنوعة التي مورست على شعوبها بكافة وسائل الإبادة والقمع، وما شكلته من خطر على الإنسان الذي أضحت تنظر إليه باعتباره أداة قابلة للاستعمال أو أداة معطلة وجب تهميشها أو التخلص منها لما تشكله من عبئ لها، فكل شخصية من شخصيات "هشام الخشن" تحمل في ذاكرتها محرقتها الخاصة، تصارع شعورا واحدا هو الإحساس بالمنفى والاغتراب والشتات والخوف وألم الاضطهاد فعندما نستمع لجميع الأصوات دون إخفات صوت وإعلاء صوت، لجميع الأقليات دون استثناء ندرك حينها أن ما قامت به إسرائيل هو إمكانية الظهور عبر احتكار دور الضحية، رغم وجود أقليات أخرى كضحايا منسيين كانوا جزءا من هذه المحرقة.

اختار "هشام الخشن" شخصية من شخصيات روايته "ليلى عزالدين" ليسائل على لسانها وعبر إذاعة برلين ضمير العالم ومساءلة التاريخ «ألا ترين أن ضحايا الهولوكوست يستحقون مثل هذا التبرع؟ _ بالتأكيد هم تعرضوا لبشاعة وجرم عظيم ..دعني أنا أسألك هل تم تعويض كل ضحايا الهولوكوست _بالتأكيد لا،(...) سأعيد سؤالي لعلي أكون أكثر وضوحا: هل تم تعويض البولنديين والسلافيين والغجر الذين قتلهم هتلر مع اليهود في أفرانه،؟ هل سمع العالم صوت أنين هؤلاء، مثلما سمع عن مأساة اليهود؟ هل تم تعويض الهنود الحمر في أمريكا، أو الأرمن على ما تعرضوا له على يد الأتراك؟(...)هل توقف العالم وحاول تعويض ضحايا صبرا وشاتيلا، أو دير ياسين؟ أم أن الآلة الإعلامية لم تجد فيهم مادة كافية للإثارة»[18].

نلاحظ داخل سردية "هشام الخشن" رغبته في إنصاف ضحايا الإبادات الجماعية مبتعدا عن خطاب التعصب والكراهية الذي قد يقلل من حجم بشاعة هذه الجرائم دفع ثمنها الإنسان، فالتاريخ من وجهة نظر سرديته إن كان سينصف اليهود فعليه أن ينصف جميع العرقيات والأقليات دون استثناء إذا كان العالم اليوم يرمي إلى مد جسور التواصل الثقافي والسلمي بين الشعوب. وبطبيعة الحال يعرّج بنا "هشام الخشن" إلى قضية الصراع الفلسطيني ضد إسرائيل، واعتبارها من القضايا التي يجب أيضا تعويض شعبها عن بشاعة الجرائم التي مورست في حقه، مثلها مثل الغجر والأرمن والهنود الحمر والقائمة مفتوحة، إذا ما أردنا التعامل مع هذه الجرائم بأخلاقيات إنسانية لا بما تفرضه الظروف والمواقف السياسية والإعلامية. فعندما تتعلق القضايا بالإنسانية لابد من تخليص ذهنيتنا من الصور النمطية

التي تشكلت حقيقة أو تلفيقا حول هذه الأقليات، فتجريم الإبادة اليهودية كفعل إنساني ليس لها علاقة بصورة اليهودي المخادع أو المجرم أو المعتدي في أماكن أخرى، أراد "هشام الخشن" أن يضع الجميع في متن التاريخ، شاركوا نفس المصير، وعليهم تحصيل نفس التعويضات والإثارة الإعلامية.

03- المثقف اليهودي حين يكتب التاريخ بذاكرة وهمية/المثقف الفلسطيني حين يصحح المغالطات التاريخية:

يقول علي بدر في روايته مصابيح اورشليم على لسان السارد: «إن إسرائيل نشأت من أسطورة أدبية...من فكرة رومانتيكية ...نشأت من رواية ....وبالتالي يجب إعادة كتابتها عن طريق الأدب أيضا....يجب تكذيبها عن طريق الرواية....الرواية هي أفضل حرب...طالما كل الحروب قد خُسرت...وفشلت فلماذا لا نجرب الرواية..»[19]، فالرواية كخطاب تتحول إلى مساحة للرد والمقاومة، وتفنيد التاريخ الذي فبركه اليهودي الإسرائيلي عبر سرده لذاكرة وهمية خارج التاريخ الرسمي لهذه الجغرافية، باعتبار الخطاب الروائي يمثل أحد الأجهزة الإيديولوجية التي توظَف من أجل تعزيز المشروع الاستيطاني في فلسطين من قبَل الروائي اليهودي الداعم للسامية في مضمر روايته والداعي لتحقيق السلام والعيش المشترك عبر مواقف سياسية، لتصبح إسرائيل من منظور رواية "مصابيح أورشليم" سردية كبرى متخيلة تم بواسطتها اختراع الهويات وتحديد مواقع وعلاقات القوة بالاعتماد على سياسات التمثيل الأدبي واساءة تمثيل الذاكرة ليكون الخطاب المضاد وسيلة للرد على أمثال "عموز عوز" خاصة في روايته **قصة عن الحب والظلام** التي حملت الكثير من المغالطات والتي انبنت على ذاكرة متخيلة وهمية غيّبت الحضور الفلسطيني، بعدما حول أرض فلسطين إلى صحراء خالية من سكانها أرض ليس لها شعب من حق شعب دون أرض دون تاريخ دون هوية، وهو الأمر الذي نستشفه من كلام السارد «كان يصف القدس وهي مملوءة باليهود، ولم يذكر العرب مطلقا وكأنهم لا وجود لهم، مجموعة من المهاجرين يسكنون حيا صغيرا، يريد من خلاله أن يقول إن القدس دوما مشغولة باليهود»[20].

تحاول سردية مصابيح أورشليم إعادة تصحيح ما شوّه من تاريخ في كتابات "عموز عوز" وغيره من روائيين إسرائيليين، حول مدينة القدس التي غيّرت الكولونيالية الإسرائيلية من ملامح هويتها ومن أسماء شوارعها، وأحياءها وبناياتها، عبر شخصية "إدوارد سعيد"، باعتبارها «"شخصية مفهومية"(...) طموحها الترحال داخل جميع ثقافات العالم، فلا تمكث في مكان واحد، ولا تستقر في زمان معين، كما لا ترضى إلا أن تتموقع خارج المكان وداخل الزمان في آن واحد»[21]

فباعتماد مقولات التقويض والتفكيك من خلال الاستراتيجيات الجديدة التي اعتمدها هذا المثقف منذ كتابه الاستشراق-المفاهيم الغربية للشرق- في تفكيك الخطابات الاستعمارية. أراد علي بدر تفكيك السردية التاريخية الإسرائيلية والوصول إلى سردية جديدة تناقضها، لها معرفة بحقيقة التاريخ بالاعتماد على شهادة هذا المفكر كشخصية سردية وهو يتجول في مدينة القدس مرشدا سياحيا رفقة "يائيل وايستر"، ساردا للتفاصيل الكثيرة التي لا يعرفها المستوطن قبل مجيئه والتي تتوارى خلف ما أضافته الكولونيالية لهوية المكان والأسماء والملامح وأخفت الهوية التي يعرفها صاحب الديار والتي شكلت ملامح الفلسطيني بتقاليده وثقافته وأحداث تاريخية لمدينة القدس بأسواقها وشوارعها وأزقتها فهل كان "عاموز عوز" وأبطالُه يعرفون ملامح المدينة القديمة التي أخفاها الزمن؟ هكذا تتساءل شخصية "إدوارد سعيد" السردية، إذ يساهم السرد التاريخي في إعادة بناء ملامح جغرافية جديدة متخيلة لا تشبه الجغرافية القديمة، بل تقوم على أنقاضها وتخفيها لكنها لا تستطيع هدمَها ومسحَها مثلما يقول أيمن المقدسي «كل شيء قديم يتراءى خلف الشيء الجديد و يقضي عليه لا شيء يمحى: المدينة مثل الطرس... كتابات تكتب فوق كتابات، صور ترسم فوق صور ورموز جديدة فوق رموز قديمة، قبور فوق قبور، لا شيء يمحى إنما يصبح فوقه وعليه، كتابات ترتسم فوق كتابات كل كتابة تبدأ بالإمحاء ترتسم على هذا الطرس كتابة أخرى...»[22].

فشخصية أيمن المقدسي السردية هي نموذج للفلسطيني المشرد المطرود من أرضه، الذي يشعر بالاغتراب واللانتماء في منفاه، يجعل من الكتابة فضاء للتعبير عن شعور المنفى باعتبار أن الكتابة هي **قلق الروح** على حد تعبير "جاك دريدا"، يحاول استرجاع التاريخ الذي أقصي منه هذا الفلسطيني والذي وجد في شخصية "إدوارد سعيد" مآلا لما يريده والشخصية المثيرة لاهتمامه للكتابة عنها وكأنه يكتب عن فلسطين ذاتها، يقول: «التاريخ سرد متقطع، وهو مختل وغير متسق وهكذا سأرويه من جديد على خلاف الرواية الإسرائيلية المتسقة والموهومة والخداعة»[23].

إن إستدعاد الروائي علي بدر لشخصية إدوارد سعيد داخل السرد لم يكن صدفة بل هو اختيار لشخصية رمزية عارفة بتاريخ مدينة القدس، حاملة لذاكرة طفولة ولدت ونشأت في مهدها، فهذه المدينة تمثل لوحة من اللوحات التاريخية الثمينة المفقودة المتصارع عليها وهي مدينة تحمل بين أزقتها أصواتا متناقضة ففيها المسلم والمسيحي واليهودي، فالبرغم من التغيير الذي طالها نجد ملامح هذه المدينة ثابتة لا تتغير في ذاكرة "إدوارد سعيد" حين يصفها بالوجه الذي لم يألفه سوى الفلسطيني وبالتاريخ الذي لا يعرفه إلا صاحب هذه الجغرافية المتمكن من شعابها، فذاكرة الفلسطيني عندما تتكلم هنا تجدها أقدم من رواية إسرائيل التي تحاول كتابة تاريخ لها فوق التاريخ الرسمي لهذه المدينة، لتتحول هنا الرواية فضاء مقاومة ووسيلة لاسترجاع مدينة القدس لساكنها الأصلي، من خلال سرد الذاكرة وتصحيح الكتابات الزائفة التي وصفت هذه المدينة.

إن كاتب التاريخ لا يمكنه أن يكون صادقا دائما، لأنه قد لا يكون جزءا من هذا التاريخ أو شاهدا عليه، وربما لن يكون موضوعيا بكل بساطة، ليمثل حضور "إدوارد سعيد" هنا حضورا لذاكرة حية مشاركة وشاهدة على الأحداث التي شيّدت عليها هذه المدينة المعقدة كما تصفها هذه السردية، رغم أنه كان بالإمكان ظهور هذه الشخصية أكثر من كونها شاهدة أي بجانبها الفكري المقاوم القادر على قراءة وفهم أحداث هذه المدينة، ولكن الكاتب هنا يكتفي "بإدوارد سعيد" كذاكرة رمزية شاهدة، وكأن الروائي يحاول إيصال رسالته أن الذاكرة الشاهدة والتي تحوز حقائق تاريخية حول هذه المدينة كافية للرد وتفنيد كل المغالطات التاريخية بكل هدوء، أي أن الكاتب منحه حرية التحرك والحديث داخل المتن في استرجاع ذكرياته المتأرجحة بين الحنين إلى هذه المدينة التي تغير طابعها بفعل الاستعمار وبين قساوة منفاه، وهي ردة فعل متوقعة لأي شخص يعيش خارج المكان الذي ولد ولعب فيه أثناء طفولته والعودة إلى مثل هذه الأماكن يعني العودة إلى الذكريات والتفاصيل التي تختفي خلف كل جديد لم يكن موجودا في الماضي ولا أحد يعرف هذه التفاصيل وتغيراتها إلا من كان جزءا منها.

خاتمة:

وفي الأخير يمكننا القول أن سرديتي مصابيح أورشليم وحدث في برلين تعدان فضاء لتعدد صوتي وتجسيدا لحوارية استحالت تحقيقها على أرض الواقع، باعتبارها أصواتا تعارضية متصارعة، تجسدت في اليهودي والفلسطيني والنازي الألماني، فلكل شخصية ذاكرتها وسرديتها الخاصة، والتي تتأرجح بين ذاكرة الفلسطيني الذي يملك الماضي، وذاكرة اليهودي الذي استحوذ على الحاضر مصادرا للتاريخ الفلسطيني وجغرافيته، وقدسه.

يحمل اليهودي ذاكرة سوداوية يأبى التخلص منها، وهي الذاكرة التي يعمل الصهيوني على ترسيخها وبقاء استمرارية وجودها عبر الأجيال، بعدما جعلت منها قضية ورأي عام تتوسل عن طريقها التعاطف، وتخفي خلفها جرائمها البشعة على الأراضي الفلسطينية المحتلة، وهو الأمر الذي فككه هشام الخشن عبر سرديته، والإجابة عن طريق شخصياته عن الأسباب التي جعلت من رواية الهولوكوست التي يسردها اليهودي من زاوية نظره كرواية منغلقة على ذاته، أكثر اهتماما وتلميعا على عكس إبادات جماعية لشعوب أخرى .

إن العلاقات التي تربط شخصيات السرديتين بعضها ببعض تجسد العلاقات القائمة على القوة والإقصاء بالدرجة الأولى، وقد حاول علي بدر قلب الموازين لصالح الفلسطيني العارف بماضيه وتاريخه مستعينا بشخصية إدوارد سعيد لما لعبته هذه الشخصية المفكرة من دور كبير في الدفاع عن الشعوب المستعمرة، وهذا لأجل تفنيد سرديات حملت مغالطات تاريخية لأمثال "عاموز عوز" إيمانا منه أنه ما سُرق عن طريق الرواية يُسترجع عن طريق الرواية وما المدن إلا تاريخ أشبه بالطرس لا يمكن لروايات لاحقة أن تمحي روايات سابقة.

تشبه المحاكمة التاريخية لأيخمان برقعة الشطرنج التي كانت تبحث عنها إسرائيل لتتمركز داخل العالم بطريقة تراجيدية، فقد اتخذت منها وسيلة لتحصيل تعويضات من أسلحة وأموال داعمة لمشروعها الاستيطاني والإرهابي في فلسطين.

قائمة الإحالات

1- بيل أشكروفت وآخرون: الرد بالكتابة(النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، تر شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2006، ص 275.

2-* للمزيد حول الأديب الإسرائيلي "عاموز عوز" فيما يخص رأيه في كتاباته السردية المغلوطة حول التاريخ الفلسطيني واليهودي، ينظر: عاموز عوز: قصة الحب والظلام، تر: جميل غنايم، منشورات الجمل، ط1، 2010.

3- إدوارد سعيد: نهاية عملية السلام أوسلو وما بعدها، دار الآداب، لبنان، ط2015،2، ص7.
4- ينظر: عاموس غولد بيرغ: الرواية اليهودية في متحف ياد فاشيم العالمي للمحرقة، مجلة قضايا إسرائيلية، العدد 70، من ص28إلى ص30.
5- هشام الخشن: حدث في برلين، الدار العربية للكتاب،ط2، 2018، ص130.
6- جلبير الأشقر: العرب والمحرقة النازية(حرب المرويات العربية_ الإسرائيلية)، تر:بشير السباعي، دار الساقي، ط1، 2010، ص346.
7- للمزيد حول محاكمة ايخمان، ينظر : حنة آرنت: أيخمان في القدس(تقرير حول تفاهة الشر)، تر:نادرة السنوسي، ابن النديم للنشر، الجزائر، ط1، 2014.
8- هشام الخشن: حدث في برلين، الدار العربية للكتاب،ط2، 2018، ص 37.
9- هشام الخشن: حدث في برلين، ص43.
10- علي بدر: مصابيح أورشليم، دار الفارس للنشر، ط2، 2009، ص 109.
11- علي بدر: مصابيح أورشليم ، ص 144.
12- علي بدر: مصابيح أورشليم ، ص،127.
13- علي بدر: مصابيح أورشليم، ص 127.
14- علي بدر: مصابيح أورشليم، ص205.
15- هشام الخشن: حدث في برلين، ص61.
16- هشام الخشن: حدث في برلين، ص ص61،60.
17- هشام الخشن: حدث في برلين، ص121.
18- هشام الخشن: حدث في برلين، ص ص137،136.
19- علي بدر: مصابيح أورشليم، ص 13.
20- علي بدر: مصابيح أورشليم، ص201.
21- نورالدين جويني: إدوارد سعيد الشخصية المفهومية في الثقافة العربية المعاصرة، مجلة لغة كلام، المركز الجامعي غليزان،العدد7، 2018، ص102.
22- علي بدر: مصابيح أورشليم، ص63.
23- علي بدر:مصابيح أورشليم، ص63.